أسرار مؤتة

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل »
« الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله »
« وأولئك هم الفائزون ۞ يبشرهم ربهم برحمة »
« منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم »

obeikandi.com

١ - زيد بن حارثة

خرجت سعدى بنت ثعلبة تصحب غلامها اليافع ، لزيارة أهلها من بنى معن . . . وما كادت تستقر بينهم حتى طلب إليها الغلام أن تأذن له باللهو قليلا مع أقرانه من غلمان أخواله خارج الدار ، فأذنت له . .

ولم تمض ساعة حتى طغت فجأة على دور بنى معن موجة ذعر شديد . . فقد أغارت خيل لبنى القين بن جسر ، وأخذت تنهب كل ماتصل إليه خارج الدور ، مما خف حمله من أرزاق ومتاع ، واحتملت فيما احتملت ذلك الغلام اليافع .. زيد بن حارثة . .

ودارت الأيام . . واستيقظ بنو كلب فى صبيحة يوم باكر على نغمات صوت حزين ، يردد أغنية جديدة باكية ، ألفوا سماع مثلها من رجل منهم ، منذ غاب عنه وحيده الصغير الذى لم يتجاوز الثامنة من عمره بعد . . . وأرهفت آذانهم والدمع يغلب مآقيهم ، وهم يستمعون إليه يقول :

بكيت على زيد ولم أدر مافعل
أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ماأدرى وإن كنت سائلا
أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعرى هل للدهر رجعة
فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل

وانخنق الصوت ، فوقف وقفة قصيرة ، تخللهـــا بكاء مثير ... وما لبث أن عاد يقول :

تذكرنيه الشمس عند طلوعهـــا
وتعرض ذكراه إذا ما قارب الطبل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره
فيا طول ما حزنى عليه ويا وجل
سأعمل نص العس فى الأرض جاهدا
ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حيـــاتى أو تأتى على منيتى
وكل امرىء فان وإن غره الأمل

وحركت نغمات الأسى قلب رجل عجوز من قومه ، فلم يستطع الصمود أمام سيل الحزن المتدفق من أعماق حارثة بن شراحيل ، ولم يتمالك نفسه أن هب من داره ، ليوقف السيل ما استطاع ، فأمسك بالرجل الجريح المكلوم بيد مرتعشة حانية ، وقال :

ـــ حنانيك أيها الرجل . . . بعض ما أنت فيـــه . .

وسقط حارثة على الأرض إعيـاء وهو يقول :

ـــ لقد فرى كبدى . ! !

• • •

وأقبل موسم الحج بعد شهور ، وخرج رجال من بنى كلب إلى البيت الحرام فى مكة عاصمة الجزيرة ، وبينما هم يطوفون حول الكعبة ،

وفى مخيلتهم صورة حارثة .. هذا الرجل الباكى ، إذ لمحوا زيدا ابنه على غير بعيد منهم ، وقد جلس على حافة حلقة من رجال عبد العزى . . فأسرعوا إليه فعرفهم . وأنبأهم عن قصته ، حين اختطفه رجال بنى القين وعرضوه للبيع فى سوق عكاظ ، حيث اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد الله وهبته له . .

وتبسم الغلام السعيد ، وهو يعلن سعادته لقومه ، ويقول لهم : بلغوا أهلى هذه الأبيات عنى ، فإنى أعلم أنهم قد جزعوا على . .

ألكنى لقومى وإن كنت نائيا
بأنى قطين البيت عند المشاعر
فكفوا عن الوجد الذى قد شجاكمو
ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر
فإنى بحمد الله فى خير أسرة
كرام معد كابرا بعد كابر

وانطلق الكلبيون إلى ديارهم وأعلموا أباه ، فأسرع الأب وأخوه كعب إلى مكة بفدائه ، ودخلا على رسول الله ﷺ وهما لا يعلمان شيئا عن أمر الدين الجديد .. وقالا :

— يا ابن عبد الله ، يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه . . . أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى ، وتطعمون الأسير . . . جئنا فى ابننا ، فامنن علينا وأحسن إلينا فى

عدائه ، فإنا سنرفع الفداء . . .

وهش رسول الله ﷺ للرجلين ، ثم نظر إلى حارثة - على غير بعيد منه - وقال :

— ماهو ؟

— زيد بن حارثة . .

— فهل لك غير ذلك ؟

— ماهو . . ؟

— ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من يختارنى . .

— قد زدتنا على النصف وأحسنت ! !

ونادى رسول الله ﷺ زيدا وقال :

— هل تعرف هؤلاء ؟

— نعم ! !

— من هما ؟

— هذا أبى ، وهذا عمى . .

— فأنا من علمت ، ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى واخترهما .

وكتم الرجلان أنفاسهما وهما ينظران إلى الغـــلام يقول للرسول الأعظم :

— ماأنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم ! !

وعلت الدهشة وجه الرجلين فقالا :

ـ ويحك يازيد .. أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ ؟

ـ نعم . إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئا . ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا . . .

وأشرق وجه رسول الله ﷺ بالسرور ، وانطلق بالغلام إلى الحجر ، وصاح بأعلى صوته وسط من كان فيه من الناس فقال :

ـ يامن حضر ، اشهدوا أن زيدا ابنى ، أرثه ويرثنى . .

وأمام تلك الصورة الفريدة من الوفاء والولاء ، طابت نفس الأب والعم ، فآمنا برسول الله وانصرفا لايلويان على شىء . . . .

* * *

ونزلت الرسالة على محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وكان زيد أول من أسلم . ومن ثم لم يترك النبى ﷺ لحظة من لحظاته ، فأورثه الله حب رسوله وأورث رسوله حبه ... فكان المسلمون لا يدعونه باسم دون « زيد بن محمد » حتى نزل قول الله تعالى فى محكم كتابه : « أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » . . وآخى الرســـول بينه وبين جعفر بن أبى طالب أعوام الحصار فى مكة . .

وأذن الله لرسوله بالهجرة ، فهاجر زيد مع صحابة الرسول ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة ، فلما وافاهم النبى فيها ، وآخى بينهم أخوين أخوين ، كان زيد مع حمزة ـ سيـــد الشهداء ـ أخوين فى الله .

ومضى على الهجرة عام وبعض عام ، ونزل قول الله على رسول الله ﷺ « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » ..ودخلت دعوة الرسول فى طور جديد من أطوار القوة ، فقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد الشاب من الرماة المرموقين ، فشهد بدرا فأحسن البلاء ، وكان هو البشير إلى المدينة بنصر المؤمنين . . وجاءت غزوة أحد فكان فيها نعم القوى الأمين ، ولما استشهد حمزة آخى رسول الله ﷺ بين زيد وبين أسيد بن حضير سيد قومه .

وتتابعت المعارك فكان ابن حارثة من أشد أصحاب رسول الله ﷺ بأسا وأصدقهم بلاء ، فشهد الخندق والحديبية وخيبر وحنين ، واستخلفه الرسول على المدينة من بعده حين خرج ﷺ إلى المريسيع . .

وخرج زيدا أميرا لسبع سرايا أولها القردة ، فاعترض لعير قريش فأصابها وأفلت منه أبو سفيان . . . وأسر زيد فرات بن حيان العجلى ، فكانت الغنيمة أول غنيمة كبرى للمسلمين ، ومن ثم لم يخرج فى جيش بعدها إلا جعله ﷺ على رأس جنده .

وزوجه رسول الله ﷺ بمولاته أم أيمن ، فولدت له أسامة فنشأ على غراره ، وصار هو الآخر حب رسول الله ﷺ وابن حبه .

وأراد الله أن يكرم زيدا فى القرآن وأن يجعله نقطة تطور فى التشريع ، فزوجه رسول الله من بنت عمته زينب بنت جحش ـ أم

المؤمنين رضى الله عنها - ليبين للمؤمنين برسالته ﷺ أن زينب وهى من شريفات بنى هاشم ، قد تشرفت بزواج زيد المؤمن وهو من موالى رسول الله ﷺ ! فلما طلقها زيد تزوجها من بعده رسول الله ليقضى ﷺ على ما بقى للجاهلية من آثار فى مجتمع المسلمين ، وليذكر القرآن الكريم زيدا باسمه العلم دون غيره من أصحاب رسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم . . »

* * *

وخرج جيش المسلمين فى ثلاثة آلاف مقاتل ، لقتال الروم فى مؤتة . وعقد رسول الله اللواء لزيد بن حارثة ، وقدمه على بقية الأمراء وقال :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة على الناس . .

ونزل زيد على رأس جيشه فى مؤتة ، فرأى الروم قد جاوزوا المائة ألف عدا . . . ورأى رجاله يترددون فى خوض حرب كأنما هى الفناء ، وهنـــاك اندفع زيد أمام جيشه ، ليعلن فى ساحة الجهاد أن عدة النصر هى الإقدام ، وأن ثمن الجنة هو الشهادة .

وتناولته سيوف الأعداء وهو يقاتل دون راية رســـول الله فمزقته إربا إربا .

وفى المدينة وقف رسول الله ﷺ إلى جانب منبره بالمسجد بعد صلاة العصر ، يقول للمسلمين :

ـ استغفروا لزيد .. لقد دخل الجنة وهو يسعى . .

ثم انطلق رسول الله إلى دار زيد ، فجهشت بنت زيد أمام حضرته بالبكاء ، فبكى النبي حتى انتحب .

وتقدم سعد بن معـــاذ إلى الرسول وهو مشفق عليه من الحزن ، وقال :

يارسول الله ما هذا ! ؟

وأجابه ﷺ بكلمة الحب والوفاء فقال :

هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ! !

◆◆◆

٢ - جعفر بن أبى طالب

كان زواج فاطمة بنت أسد من أبى طالب بن عبد المطلب حديث الغرابة والدهشة بين الأشراف من قريش ، وخاصة بين بنى هاشم.. فلقد أصر أبو طالب أن يتحدى عرف أهله وقومه ، فكان أول هاشمى يتزوج من هاشمية .

ومات عبد المطلب - سيد مكة - وترك لابنه أبى طالب ذلك المجد العريض من سيادة قومه ، فازداد سعة فى الإنفاق ، وتكاتف مع زوجه الهاشمية فى البذل والسخاء على طبيعة بنى هاشم ، احتفاظا بمهابة البيت بين العرب ، فهو قد صار كعبة القبائل من مختلف البقاع .

ومرت بمكة أيام جدب عجاف ، أصابت قريشا منها أزمة فقر شديد ، انقلب معها ثراء أبى طالب نفسه إلى ضيق وحرمان وشظف عيش ، فكان السيد الكبير يعانى نازلة الفقر أكثر مما يعانيه بيت من بيوت الأشراف ، وكانت كثرة أولاده عنوانا صارخا على ذلة الأعزاء .

واختلى شريف قريش - محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه - بعمه العباس بن عبد المطلب وكان أيسر بنى هاشم، وقال :

- ياعباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمنة ، فانطلق بنا إليه ، فلنخفف عنه من عياله .. آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنكفيهما عنه ..

واستجاب العباس إلى رسول الله ﷺ ، فانطلقا إلى بيت أبي طالب ، فقال ، ﷺ ، لعمه :

ـ إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

واستضامت نفس أبي طالب لوفاء النبي فقال :

ـ إذا تركتما لي عقيلا ، فاصنعا ماشئتما .

فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه ، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه .

وبقي جعفر في كنف العباس ، يحيا حياة الترف والثراء ، حتى بعث الله نبيه إلى العالمين بالهدى ودين الحق . . فأسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها . . ثم استغنى بعد ذلك عن العيش في بيت عمه ، لأنه لم يعلن إسلامه بعد هو الآخر . ! !

واشتد إيذاء قريش للمسلمين وأصاب جعفرا من أذى الكفار ما جعل مقامه في مكة أمرا لا يطاق ، فكانت الهجرة إلى الحبشة .. وكان جعفر هو أمير المهاجرين ، وهاجرت معه زوجته أسماء بنت عميس فولدت له هناك عبدالله فكان ، أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة .

وبعثت قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ، عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وبعثت معهما الهدايا والقربات ، وطلبت منه في كتابها إليه أن يسلم رسوليها أولئك النفر الخارجين على دين اللات

والعزى ،فدعا النجاشى جعفرا ليسأله عن الدين الجديد ، فى حضرة الرسولين ، فأجابه جعفر بصراحة المؤمن . . وقال آخر ما قال :

ـ إن ديننا قد أخرجنا من عبادة الناس إلى عبادة الله .

واستقر المعنى الرهيب فى قلب النجاشى ، فأعاد إلى رسول قريش هدايا قريش . . وقال :

ـ إنى مانعهم فى أرضى ، ولن أسلمهم أبدا . !!

وأراد عمرو بن العاص أن يعاود الكرة على النجاشى ، وأن يوقع بينه وبين المسلمين ، وأن يحرك نزعة العقيدة فى نفسه ، فقال :

ـ أيها الملك العادل ، إنا نريد أن تسأل جعفرا عن قول الإسلام فى ابن مريم !

وجاء جعفر بين يدى النجاشى مرة أخرى ليجيب عن السؤال الدقيق . . فقال :

ـ إن مثـــل عيسى عند الله كمثل آدم . . . وإن هو إلا عبد أنعم الله عليه . !!

وفى وسط الحلقة الرهيبة قرر النجاشى أن يمنع المسلمين فى أرضه مما يمنع منه أهل الحبشة على السواء

ثم أعلن إسلامه لجعفر ومن معه ،وأخفاه عن قومه ورعاياه . . ومن ثم أباح للمسلمين أن يدعوا من يشاؤون دعوته إلى الإسلام . . فآمن من أهل الحبشة كثيرون ، كانوا هم عماد الدعوة إلى الدين الجديد فى الأرض الصالح راعيها . .

وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فاستقرت فيها الدعوة إلى الله بعيدا عن عنت المشركين وإرهاقهم ، فانتشرت فى الربوع، وتهيأت لمقارعة القوة بمثلها ، ثم مالبثت أن دعمت حجة الحق بقوة والسيف..

وبعث رسول الله ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية يطلب منه إعادة المسلمين إلى وطنهم الآمن بعاصمة الإسلام فى المدينة فأعادهم النجاشى مكرمين على سفينتين ، فقدموا على النبى ﷺ ، وكان وصولهم يوم أن وقف النبى ﷺ فى أصحابه يدكون قلاع اليهود فى خيبر ، ليطهروا أرض الجزيرة من آخر قلعة لأشد الناس عداوة للذين آمنوا . .

واستقبلهم النبى استقبال الأب الحانى ، ثم ضم جعفرا إلى صدره، وأخذ يشمه ويقبل مابين عينيه ، ويقول :

ـ ما أدرى بأيهما أنا أسر ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ! ؟

وعاش سيد شباب بنى هاشم بالمدينة مدة قصيرة ، دعا بعدها داعى الجهاد إلى حرب الروم فى مؤتة . . وخرج جعفر بعد أن ودع زوجه وأطفاله ، وسار تحت لواء رسول الله ﷺ خلف زيد ابن حارثة ، أمير الجيش .

وفى مؤتة التقت القوتان المتباينتان . . قوة المسلمين فى ثلاثة آلاف مقاتل ، وقوة الروم فى مائة ألف أو يزيدون ، ودارت رحى الحرب شديدة طاحنة ، وخر أمير الجيش شهيداً تحت اللواء الخفاق ، وتقدم جعفر ليخلف القائد الشهيد ، امتثالا لأمر رسول الله ﷺ إليه بالمدينة .

وأقبل الشيطان يزين لفتى بنى هاشم الحياة ويخيفه الموت . . فانبعثت حرارة الإيمان من أعماقه لتحرق الوسواس الخناس ، فقال جعفر يخاطب نفسه على ملأ من حوله ، وقد حمى الوطيس :

ـ آلآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين ، تمنينى الدنيا !؟

ثم اقتحم عن فرسه الشقراء ، ورمى بنفسه بين العدو وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
على إذا لاقيتها ضرابها

وانقض الأمير الهاشمى على هامات الروم يطيح بها يمينا وشمالا . . وخاف قواد الروم سوء المصير ، فحشدوا قواتهم فأحاطوا بجعفر من كل جانب ، وأخذوا يوقفون سيله ويغلقون سبيله إلى داخل صفوفهم ، حتى استطاعوا أن يصيبوه بضربة سيف فقطعوا يمينه ، فأخذ البطل اللواء بشماله ، فما لبث أن أصيب بضربة ثانية قطعت شماله هى الأخرى ، فحمل اللواء بعضديه ، وأخذ يكبر ويهلل وكأنه على رأس جيش منصور !!

وتسلطت على الأمير سيوف الروم فقطعت رجليه ، ثم شطرت جسده شطرين ، بعد أن أصابوه بثلاثة وتسعين طعنة ، استقرت كلها فى صدره دون ظهره .

* * *

ووقف رسول الله ﷺ بين أصحابه فى المدينة ، يعلنهم بالنبأ العظيم ، وكأنه يراه رأى العين ويقول :

ـ أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيـــدا . . ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا .

وبعد الجلسة الرهيبة ، غادر رسول الله المسجد إلى دار جعفر ، فوجد امرأته أسماء تنظف أبناءها وتعطرهم ، فتقدم إليهم ﷺ وأخذ يشمهم وهو يبكى ، فقالت له أسماء :

ـ يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ ؟

وأجابها الرسول والدمع يذرف من مآقيه :

ـ أصيبوا اليـــوم .

وارتفع صوت الزوجة الوفية بالبكاء ، فأقبل إليها نساء المسلمين يشاركنها الحزن والرثاء . . ورأى رسول الله انشغال آل جعفر بأمر جعفر عن صبيانه الصغار ، ففاضت عيناه من الدمع ، ، وخرج من البيت الحزين ، وقال :

ـ لاتغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

وبعد صلاة المغرب ، وقف الرسول وســط أصحابه ، وذكر جعفرا وقال :

ـ لقد رأيته فى الجنـــة ، له جناحان مضرجان بالدماء ، مصبوغ القوادم .

ومضت أيام ، هدأت بعدها حدة الحزن فى بيت جعفر ، وتقدمت

الزوجة الثكلى إلى رسول الله ، وذكرت يتم أطفالها وضيق معاشهم بعد موت أبيهم الغنى الجواد ، فبكى رسول الله وقال :

ـ العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ! !

وسمع أبو هريرة قصة أسماء، فبكى على أسخى بنى هاشم وأجودهم بعد رسول الله ، وقال :

ـ كان خير الناس للمساكين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان فى بيته ، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التى ليس فيها شىء ، فيشقها فنلعق ما فيها ! !

ومضت أيام أخر ، عاد بعدها جيش المسلمين مـــن مؤتة ، وهرع الصبيان إلى لقائه عند أبواب المدينة بالزجر وحثو التراب .. وهرع معهم عبد الله ومحمد وعون أبناء جعفر ، يتشممون رائحة أبيهم الشهيد .. وما لبثوا أن عادوا يحملون شرف المجد الذى شيده الأب فى ميدان الجهاد ، حيث بقى جسده الطاهر فى أرض مؤتة ، علما على الشهادة بين الشهداء . .

٣ - عبد الله بن رواحه

لم تكن القافلة العظيمة لتحدث الضجة الكبرى بين أهل يثرب لولا أنها تحوى رجلا جليل القدر بين الناس كعبد الله بن رواحة . . ذلك الشاعر الفحل والكاتب الشهير وسـط الأمية الضاربة بين قبائل العرب .

إن وجهتها مكة البلد الحرام ، حيث تستعر نار الحرب بين عقيدتين متباينتين ، عقيدة الآباء يحميها السادة القرشيون ، وعقيدة التوحيد يعلنها شريف قريش ـ محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ـ ويلتف حول لوائها حفنة قليلة من المستضعفين . .

وكان بنو النجار فى المدينة ـ وهم أخوال النبى الجديد ﷺ ـ أكثر الناس قلقا ودهشة لأمر القافلة الخطيرة وهى تشق طريقها فى قلب الصحراء نحو الميدان المستعر ، لأنهم يعلمون ماتنطوى عليه الرحلة من معان رهيبة ، سوف يكون لها أعمق الآثار فى مستقبل الجزيرة كلها .

وفى ظلام الكون وصلت القافلة إلى منافذ المدينة المضطربة ، وترجل من فوق ظهور الإبل سبعون من بنى الأوس والخزرج عند العقبة فى الساعة المعلومة . . وكان اللقاء رهيبا بين رسول الله ﷺ وبين الرعيل الأول من المؤمنين برسالته من أهل المدينة .

وامتد بساط البيعة فبايع بنو الأوس والخزرج جميعا رسول

الله ﷺ .. على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم .

وأمر رسول الله ﷺ بأن يختاروا منهم اثنى عشر نقيبا ، ليكونوا أمراء الناس فى الدعوة إلى التوحيد ، عندما يعودون إلى بلادهم وأقوامهم ، فاختار بنو الحارث بن الخزرج عبدالله بن رواحة نقيبا لهم .

وعاد رجال العقبة ، فهيأوا المدينة لدعوة النور ، حتى إذا ما كانت الهجرة ، كانوا هم الأوفياء الذين آووا ونصروا وآثروا رسول الله ﷺ وأصحابه على أنفسهم وأهليهم . .

وازداد عبد الله بن رواحة تعلقا برسول الله ﷺ وامتلأت نفسه الكبيرة بجلال البيعة ، فكان علما على كمال الطاعة ، وحسن الاتباع . .

لقد جاء إلى المسجد يوما ، وكان الرسول يتأهب لإلقاء خطبته بين المسلمين ، فما كاد عبد الله يسمع النبى ﷺ يقول للناس : « اجلسوا » ، حتى جلس من فوره خارج المسجد نزولا مطلقا على أمر النبوة ، وحرصا على ألا تفوته كلمة من الكلمات الخالدات . . حتى إذا ما فرغ النبى ﷺ من خطابه ، كانت المعانى السامية تهز ابن رواحة هزا ، جعلته ينتفض بين الناس بحرارة الإيمان ، وينطلق لسانه الفصيح بآيات الوفاء والثناء .

وسمع رسول الله ﷺ بأمر عبد الله ، فاستدعاه وقال له :

ـ زادك الله حرصا على طواعية الله وطواعية رسوله . .

وأذن الله لنبيه بقتال الكافرين ذودا عن الدين وردا للعدوان ،

فكان عبد الله بن رواحة أول قافل ذب عن رسول الله بلسانه وسيفه ، وكان أول الخارجين فى كل غزوة ، وآخر العائدين منها ؛! وكان البشير الذى بعثه رسول الله إلى العالية ، لينثر بشعره الرصين بين الناس آيات النصر فى ساحة بدر ، حيث انهارت جحافل الكفار أمام قلة المؤمنين فى ساعة من نهار . .

وشهد عبد الله أحدا والخندق والحديبية وخيبر . . فاستحق بذلك رضوان الله ومغفرته ، حيث قال رسول الله ﷺ : « لا يلج النار أحد شهد بدرا والحديبية » ، ولقد شهدهما ابن رواحة ، بل كان فى الطليعة من شهدوهما .

ودخل رسول الله ﷺ مكة بعد سنوات الجهاد الأولى ، فى عمرة القضاء ، وكان ابن رواحة ، هو صاحب زمام الناقة ، فما كاد يلمح وجوه الكفار ، حتى دوى لسانه بصوت الشعر يرسله من معينه الدافق بينهم ، وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله

يارب إنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله

وغضب عمر بن الخطاب ، فقال :

— يابن رواحة ، فى حرم الله وبين يدى رسول الله ، تقول هذا الشعر !؟

وصمت ابن رواحة ، لأنه يدرك أن من تكريم الله لنبيه أن أبعده عن الشعر وعن قوله ، فقال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى

له . . ولم يطل صمته أمام اعتراض عمر حتى قال رسول الله ﷺ :

— خل عنه يا عمر . فو الذى نفسى بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل . ! !

وانتعشت نفس ابن رواحه بقول رسول الله ﷺ ، فقال :

يارب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الكفار قد بغوا علينا !

وتبسم رسول الله ﷺ وقال :

ـ اللهم ارحمه . .

وتبسم عمر لقول رسول الله ﷺ وقال :

— وجبت ! !

ولما نزل قول الله عز وجل على رسوله ﷺ : « والشعراء يتبعهم الغاوون » أخذ ابن رواحة يشهق ويجهش بالبكاء ويقول :

— إنى منهم . !

فأنزل الله قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . »

وقبل فتح خيبر ، بعثه رسول الله ﷺ على رأس ثلاثين فارسا إلى أسيد بن قرام اليهودى هناك فقتله ، وأشاع بشعره الرهيب الخوف فى قلوب اليهود جميعا . . ولما عاد ، وجد بلاءه قد شاع فى المدينة ، ووجد أبطال المسلمين يكبرونه ويعظمونه ، حتى لقد قال فيه الزبير بن العوام فارس رسول الله ﷺ :

— ما رأيت أحدا أجرأ ولا أسرع شعرا من ابن رواحة .

* * *

وتهيأ المسلمون للخروج إلى مـــؤتة ، ووقف ثلاثة آلاف من المسلمين خارج المدينة فى صفوف منتظمة قبل المسير للقاء الروم . .

ووقف رسول الله ﷺ يودع الجيش ، بعد أن جعل على رأسه زيد بن حارثة ، وقال :

ـ إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر ، فعبدالله بن رواحة على الناس . .

وما كاد الرسول يعلن ذلك الأمر حتى كبر الأنصار وهللوا . . لقد شرفهم رسول الله ﷺ فأشركهم فى شخص ابن رواحة قيادة المسلمين ، كالمهاجرين سواء بسواء . .

وطغت رهبة الموقف على نفس ابن رواحة وقد فهم من كلام الرسول ﷺ أن زيدا وجعفرا سيكونان من الشهداء . . هنـالك أخذ يبكى وقد خاف من نفسه ألا يـكون دون المهاجرين الكريمين إيمانا وإقداما . . !

وأقبل عليه الأنصار يودعونه . . فقال له بعضهم :

ـ ما يبـكيك يا ابن رواحة !؟ فأجاب قائلا :

ـ أما والله مانى حب الدنيـــا ، ولا صبابة إليها ، ولـكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : « وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا » . . فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود !؟ ؟

هنالك هز المعنى الرهيب قلوب الأنصار وقالوا:

— صحبكم الله، وردكم إلينا صالحين . .

فقال ابن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيد حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم سار ابن رواحة، فوقف بين يدى رسول الله ﷺ وودعه، فدعا له الرسول بخير.

وسار الجيش خلف الأمراء الثلاثة، وكان فى رحل عبد الله بن رواحة غلام يتيم له، هو زيد بن أرقم، فما كاد يرخى الليل سدوله ويطغى من خلاله على الجيش جلال السعى لإعلاء كلمة الله، حتى أخذت ابن رواحة هزة شوق إلى الشهادة، فأخذ ينشد ويقول على مسمع من الغلام، وكأنه يخاطبه:

إذا أدنيتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعمى وخلاك ذمى ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المؤمنون وغادرونى بأرض الشام مشهور الثواء
وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ولا نخل أسافلها سواء

فلما انتهى ابن رواحة بكى الغلام واشتد نواحه، وكأنه تصور فراق سيده فى ساحة القتال . .

فلما سمعه عبدالله خفقه بالدرة وقال :

— ما عليك أن يرزقنى الله الشهادة ، وترجع بين شعبتى الرحل !؟

ومضى الجيش حتى نزل معان من أرض الشام . . وهناك جاءته الأخبار عن وصول هرقل على رأس جيشه لملاقاة المسلمين فى مائة ألف مقاتل من الروم ، ومثلهم من المستعربين .

وجثمت الأهوال على المسلمين ، وأخذوا يفكرون فى الأمر مليا حتى قال بعضهم :

— نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ومن خلال موجة الفزع ، قام ابن رواحة فى الجيش خطيبا بعد أن أذن له الأمير الأول بالكلام ،فقال :

— ياقوم ، والله إن التى تكرهون ، للتى خرجتم تطلبون ـ الشهادة ـ وما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولا كثرة ، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين . . إما النصر . . وإما الشهادة . ! !

ونزلت الكلمات القوية على قلب الجند ، فأحالتها جبالا راسيات . . حتى قال الناس :

— قد والله صدق ابن رواحة ! !

ومضى الجيش إلى وجهته حتى نزل بمؤتة ، ووقف فى قلته الضئيلة أمام الكثرة الهائلة . .

وشمرت حرب الفناء عن ساقيها ، فتقدم الأمير الأول زيد بن حارثة ، فما لبث أن مات شهيدا ، وحمل اللواء من بعده الأمير الثانى جعفر بن أبى طالب ، فما لبث أن مزقته السيوف إربا إربا . .

وجاء دور الأمير الثالث عبد الله بن رواحة ، فعاد إليه الوجل والناس يدعونه إلى مكان الامارة فيهم ، فتقدم وهو يخاطب نفسه على ملأ المسلمين والكفار ، ويقول :

يانفس إلا تقتلى تموتى هذا حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقـــد لقيت إن تفعلى فعلهما هديت
وإن تأخرت فقـــد شقيت

ثم ارتعد رعدة مهيبة ، قال بعدها :

ـــ يانفس !! إلى أى شىء تتوقين ؟؟ إلى إمرأتى ؟؟ فهى طالق .. إلى غلمانى ؟؟ فهم أحرار ، !! إلى مالى ؟؟ فهو لله ورسوله . !!

وحمل الأمير الثالث الراية ، ونفذ إلى صفوف الأعداء ، فرأى الموت يحصد المسلمين حصدا ، فهاجت نفسه ، فعاد قليلا وهو يقول :

يانفس مالك تكرهين الجنة أقسم بالله لتنزلنـــه
طائعـــة أو لتكرهنـه فطالما كنت مطمئنـــة
هل أنت إلا نطفة فى شنة قدأجلب الناس وشدوا الرنة . .

ثم رمى بنفسه وسط الأعداء ، فاستقبلته السيوف تطعنه فى رأسه فقاتل بيد ، وحمى رأسه بيـــد . . ولكن مالبث أن أصيب بضربة قاتلة ، فسقط شهيدا بين الصفين .

ووقف رسول الله ﷺ بين أصحابه بالمدينة ، يعلن النبأ ساعة وقوعه .. وكأنه فى ساحته ، وقال :

ـ أخذ زيد بن حارثة الراية فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب فقاتل بها حتى قتل شهيدا ..

ثم صمت الرسول ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان فى ابن رواحة بعض مايكرهون .. ولكنهم لم يطل تساؤلهم كثيرا ، حتى انطلق لسان الرسول ﷺ بعد هنيهة يقول :

ـ ثم أخذها عبدالله بن رواحة ، فقاتل بها حتى قتل شهيدا ..

وصمت الرسول لحظة أخرى والناس فى خشوع رهيب ، وما لبث أن قال :

ـ لقد رفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب ! فرأيت فى سرير عبدالله ابن رواحة أزورارا عن سريرى صاحبيه ، فقلت عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد .. ثم مضى . ! !

وجهش الناس بالبكاء على الأمراء الثلاثة ، وارتفعت الأصوات بالرثاء لكل منهم على السواء .

وصلى المسلمون صلاة المغرب والعشاء خلف رسول الله ، وما يقدر أحد على النظر إلى وجهه ﷺ ، لفرط مايملؤه من الحزن العميق . . حتى كانت صلاة الغداة من اليوم التالى ، حيث انقلب غمه إلى رضى وإشراق ، ومن ثم استدار إلى الجموع بالمسجد وهو يبتسم . . فقال له بعضهم :

— يانبي الله بأنفسنا أنت . . مايعلم إلا الله ما كان بنا من الوجد عند رأينا منك الذى رأينا . .

فأجابهم ﷺ وقال :

— كان الذى رأيتم منى أنه أحزننى قتل أصحابى ، حتى رأيتهم فى الجنة إخوانا على سرر متقابلين . .

• • •

ووقف أبو الدرداء صاحب رسول الله ﷺ يبكى فى حلقة من الناس على فراق عبد الله بن رواحة ، ويقول :

— أعوذ بالله أن يأتى يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة . . كان إذا لقينى يقول : يا عويمر إجلس فلنؤمن ساعة . . فنجلس فنذكر الله ماشاء الله ، ثم يقول : يا عويمر هذا هو الإيمان . . هذا هو الإيمان . .

◆◆◆